الأستاذة: د. سهيلة مازة.
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – جامعة قسنطينة 3– الجزائر

عنوان البحث: تفعيل الوعي بالسنن الكونية في الإنتاج الحضاري

مقدمة:

جعل الله لهذا الكون سننا ثابتة تحكمه وتعمره، وهذه الحاكمية بالسنن الربانية في الكون والاجتماع لا تعني الجبرية التي تجرد الإنسان من حريته واختياره وتسخيره لقوانينها؛ وإنما تعني أن وعي الإنسان بهذه القوانين وقواعد حركتها هو الذي يجعله قادرا على تسخيرها والسيطرة عليها في أداء الأمانة التي استخلفه الله للنهوض بها، بينما الغفلة عنها يجعله ضحية لها.

والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها، حيث أن القرآن يشير إليه في مواضع كثيرة بإرشاد الله الناس إلى أن له في خلقه سننا يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علما من العلوم المدونة لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه، ورغم خطورة إهمال هذا الموضوع إلا أنه لم تأخذ من تفكير المسلمين في القديم أو الحديث إلا القدر اليسير. كما كانت عبادة الله بالسنن غائبة، رغم أن القرآن غني بالجوانب الحضارية التي تتكفل بإنشاء وإحياء أمة جيل وتقود الناس إلى طريق السداد، لكن الأزمة ليست في غياب المنهج الذي يضبط، ولكن في العقل الذي يدرك والقلب الذي يعي والجارحة التي تعمل وتنفذ.

وبالتالي فإنه من الواجبات الدينية المفروضة على المسلم في كل وقت معرفته بالسنن الإلهية التي سنها الله لتسيير هذا الكون (لأنها تبصر بكيفية السلوك الصحيح في الحياة حتى لا نقع في الخطأ والعثار والغرور والأماني الكاذبة، وبذلك ننجو مما حذرنا الله منه، ونظفر بما وعد الله به من عباده المتقين) [1]، **(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)**[2]

و الحديث عن السنن الإلهية ويدعو للحديث عن البناء الحضاري، لأنه إذا كان الكون هو الوعاء المكاني لوقوع هذه السنن الإلهية، فإن التاريخ هو الوعاء الزمني لهذه السنن الإلهية: **(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ**

---

[1] _ عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1414هـ-1994م، ص 16-17.

[2] _ سورة النور الآية 55

بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)[1]، ليس ذاك إلا لكون الشهود الحضاري من دعائم الأمور، إذ أن (الحضارة ليست شيئا عظيما فقط، بل إنها بكليتها شيء لا يماثله شيء آخر في هذا العالم العضوي، فهي النقطة الواحدة التي يسمو عندها الإنسان بنفسه فوق قوى الطبيعة) [2].

فقد يجد الإنسان نفسه بين ركام من الصراعات، صراع سياسي، وصراع اقتصادي، وصراع ثقافي، وصراع حضاري، (وإذا كان الصراع السياسي الاقتصادي هو أبرز ما يستلفت النظر في هذه الصراعات، وقد يبدو للنظرة المتعجلة أخطرها، فهو عند التأمل المتأني المتعمق يبدو أقل خطرا من الصراع الفكري والحضاري، ذلك لأن الظروف السياسية والاقتصادية كثيرة التقلب وسريعة التبدل)[3].

وتحدث فجأة وتزول فجأة (بحيث تبدو الأمور حين تزول أسباب التغير السياسي والاقتصادي وكأنه لم يكن) [4].

التعريف بالسنن الإلهية:

السنة لغة:

ذكر الصاحب بن عباد أن(السنن: المذهب والطريق، وكذلك السنن: القصد الذي تريده، والسنن: أول القوم، وسنَنَ الغارة: أوائلها.... والسنة: العادة أيضا) [5].

(والسنة: السيرة حسنة كانت أو قبيحة، قال خالد بن عتبة الهذلي:

فلا تجزعن من سيرة أنت سرتها فأول راض سنة من يسيرها.

وفي قوله تعالى: **(وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا)** [6]، قال الزجاج: سنة الأولين أنهم عاينوا العذاب... وسننتها سنا واستننتها سرتها، وسننت لكم سنة فاتبعوها، وفي الحديث: "من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل

---

[1] _ سورة الحج: الآية 47

[2] _ شفيق ابراهيم العياري، "دراسات في الحضارة الإسلامية "، 1403هـ-1983م، دت، ص 8.

[3] _ محمد محمد حسين، "الإسلام والحضارة الغربية"، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط8، 1408هـ- 1987م، ص11.

[4] _ الإسلام والحضارة الغربية"، المرجع نفسه، ص 11.

[5] _الصاحب بن عباد، " المحيط في اللغة"، مادة: سن، حرف السين، باب النون.

[6] _ سورة الكهف: 55

بها، ومن سن سنة سيئة....) [1].يريد من عملها ليقتدى به فيها، وكل من ابتدأ أمرا عمل به قوم بعده، قيل هـ الله الذي سنه...السنة وما تصرف منها، والأصل فيه الطريقة والسيرة) [2].

وجاء في "تاج العروس" أن (السنة: السيرة حسنة كانت أو قبيحة، وقال الأزهري: السنة الطريقة المحمودة المستقيمة، ولذلك قيل: فلان من أهل السنة، معناه من أهل الطريقة المستقيمة المحمودة، والسنة: الطبيعة، وفسر بعضهم قول الأعشى:

كريما شمائله من بني معاوية الأكرمين السنن.

السنة اصطلاحا:

الناظر في كلام المفسرين ومن لف لفهم يجد معاني كلمة السنة في القرآن الكريم مستوحاة من الأصل اللغوي.

السنن الإلهية في بناء القرآن:

يعتري لفظ "السنة" في مساق الدراسات الإسلامية جمع من المعاني والدلالات، يتبع كل منها فحوى الموضوع الذي ترد فيه، ولا يخفى على المتأمل في تلك المعاني أنها غير خارجة عن الدلالات التي يوحيها الأصل اللغوي، والذي أشرنا إليه آنفا.

قال القرطبي في "تفسيره": "والسنن جمع سنة وهي الطريق المستقيم) [3].وفي "معالم التنزيل" للبغوي، والسنة هي: (الطريقة المتبعة في الخير والشر، يقال: سن فلان سنة حسنة وسنة سيئة إذا عمل عملا اقتدي به من خير وشر) [4].وذكر الإمام الشوكاني في "فتح القدير" أن: (المراد بالسنن: ما سنه الله في الامم من وقائعه... وهي الطريقة المستقيمة، ومنه قول الهذلي:

فلا تجزعن من سنة أنت سرتها فأول راض سنة من يسيرها) [5]

كما أن الرازي عرف السنة بقوله: "وأما السنة فهي الطريقة المستقيمة والمثال المتبع"[6].

---

[1] _ أخرجه أحمد 362/361/4، والدارمي (541)، وميلم (2317) و(6897) و(6898) وابن خزيمة (2477)، من حديث جرير بن عبد الله، به مرفوعا، وفي الحديث قصة، ويروى مطولا ومختصرا.

[2] _ ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، تحقيق عبد الله علي الكبير، مادة: سنن، ص 200.

[3] _ القرطبي، 216/4

[4] _ معالم التنزيل"، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط4، 1417هـ- 1997م، 109/2.

[5] _ الشوكاني، "فتح القدير"، مكتبة مصطفى البابي بمصر، ط2، 1383هـ- 1974م، 383/1.

وبالتالي يمكن: إن السنن الإلهية هي: (الطريقة المطردة، التي يجري الله عليها الشؤون، وبحسبها تكون الآثار) [1].

(أو هي: الطريقة المطردة التي قضى الله أن يعامل بها الخلائق، دونما تحويل أو تبديل، أي: لا يستبدل بها غيرها، لأنها ثابتة، ولا تتحول نتائجها، لأنها مطردة) [2].

أهمية دراسة السنن:

تظهر أهمية السنن الإلهية في الكون والقرآن الكريم عندما تتلاقى مع السنن الكونية التي تجري على سائر البشر، وطريقها النظر بالعقل لقوله تعالى: **(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)**[3] وبالتالي فإن العلم بالسنن الإلهية من أعظم الوسائل لكمال العلم بالله وصفاته وأفعاله، وأعظم العلوم التي يرتقي بها البشر في الحياة الاجتماعية المدنية[4].وهذا النظر إلى السنن يجعل الإنسان أقدر على التعامل مع سنن الكون ونواميس الحياة الثابتة بلا تغير، المطردة بلا توقف والماضية على الأفراد والجماعات والشعوب، وهذه المعرفة لسنن الله تعالى في الآفاق والأنفس لا تقل في أهميتها عن معرفة قوانين المادة والتعامل معها، "فإن لسلامة النظرية أثرا هاما في الوصول إلى الحل بلا توقف إذ أن من أكبر الظلم الذي ينزله الإنسان بنفسه في عدم رؤيته للعلاقة التسخيرية بين الإنسان والكون والمجتمع فيهمل نفسه بنفسه ولا يضعها في المكان التي يسخر الآفاق والأنفس على أساس السنن المودعة فيها.

وإذا نظرنا إلى مجال من مجالات المادة كالطب مثلا: أدركنا مدى أهمية دراسة السنن ومعرفتها، "فالطب بما وصل إليه من كشف قوانين والمرض العضوي للكائن الحي مكن الطبيب بواسطة هذه القوانين وتسخيرها من التغلب على الأمراض والآفات، فالذي يعلم هذه القوانين يمكنه أن يستخدم إزاء المرض إجراءات فورية في الدواء والغذاء والعمل وأخرى مرحلية لإعادة التوازن إليه، ولا يقوم بهذا العمل إلا من يعرف القوانين التي يخضع لها الكائن الحي، بينما الذي يجهلها فإنه يعجز على إيجاد التوازن لها لأنه لا يدرك مضار خطورتها ولا يملك وسائل الإنفاذ والعلاج، وإذا تجاوزنا هذا الجانب الملاحظ من قوانين المادة إلى

---

(6) _ الرازي، "مفاتح الغيب"، 392/4.

(1) _ محمد عبده، "الإسلام والنصرانية، نهضة مصر، 1375هـ، ص 16.

(2) _ علي محمود عكام، "السنن الإلهية وأثرها في حركة التاريخ من منظور إسلامي"، ص 32.

(3) _ سورة فصلت الآية 53،

(4) _ محمد الصادق عرجون، سنن الله في المجتمع من خلال القرآن، ص 9.

أمراض المجتمع من تحلل خلفي وفساد اجتماعي وعدم القدرة على حياة سليمة أدركنا التشابه الكبير بين الجسد الإنساني والجسد الاجتماعي ومدى حاجة كلا منهما إلى الطبيب المداول، إلا أن الناس تدرك بوعيها الحاجة إلى معرفة قوانين الطب والهندسة إلا أنهم لا يدركونها في قوانين المجتمع أو السنن الإلهية، رغم أن هناك خلاصات كثيرة وعصارات من أحوال الأمم والشعوب تحدث عنها القرآن الكريم، فما أفاد المسلمون منها إلا قليلا ولا كثيرا في استخلاص قوانين البقاء وأسبابها[1].وفي هذا الصدد يقول محمد عمارة: "التاريخ لا يعيد نفسه بل تحكمه سنن ثابتة مطردة كلما توفرت المقدمات كانت النتائج ومنه لا تكفي معرفة أهمية السنن الكونية، بل لابد من تحويل ذلك إلى منهجيات للتعامل معها، وفهم السنن طريق لتسخيرها، والوعي بها سبب إلى توضيحها والاستفادة منها، ولعل فقه التعامل مع هذه السنن يكمن في خطوات ثلاث وهي: **التفاعل– الاستخدام– التحويل**.

- فالتفاعل مع السنن: يعني أنه لا ينبغي أن يصادمها، ولا يقف أمامها، بل لابد أن يوظفها لصالحه ويجعل تيارها معه لا عليه.
- الاستخدام: وهو التوظيف بعد الإدراك والتسخير حتى يصل بها إلى درجة الانتفاع بها.
- التحويل: يقصد به تحويل تيار السنن بأن يجعلها تخدمه لا تستخدمه وأن يستثمر قوتها وشدتها جاعلا تيارها يجري في مساره.

الحاجة إلى وعي السنن الكونية:

يعد التبصر بأحوال الأمم السابقة واستشراف الماضي، وإدراك التجربة البشرية من الواجبات الحضارية التي كُلفنا بها، علما أنها جسّدت السنن الكونية التي تحكم حركة الكون والإنسان والحياة، وبالتالي فإن النظر في ملكوت الكون، واستيعاب التجربة التاريخية هما المصدر والمخبر الحقيقي لفقه، هذه السنن، ومعيارية القياس في صواب الفعل والكسب الإنساني لقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾[2] ، ولم يكن العقل العربي زمن نزول الوحي ليتسع تصوره ولم يملك تلك النظرة السننية الشاملة ليربط بين السلوك الإنساني وبين السنن الثابتة حتى لا يقع له ذلك الالتباس بين ثبات هذه السنن وحاكميتها بين القدرة الإلهية المطلقة، إلا أن الواجب هو ضرورة

---

[1] _ انظر رمضان خميس زكي الغريب، مفهوم السنن الربانية من المفهوم إلى التسخير، ج1، دار المقاصد، ط2015، ص 68-69.

[2] _ سورة الروم الآية 42

التبصر بهذه السنن لأن التعبير القرآني المكثف عنها يفرض علينا العلم بها ووعيها والانسجام معها لأنها السنن المطردة والحاكمة لحركة الحياة والأحياء لقوله تعالى: [**اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا**] [(1)]، فهي بذلك بحاجة إلى قراءة معرفية واعية ومنهجية مفاهيمية واضحة في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ومنه فإن علم السنن هي المعرفة بهذه السنن المجردة عن المكان والزمان والمصاحبة للإنسان في مسيرته الوجودية لقوله تعالى:[**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**][(2)] ، وهذا التوزيع اللغوي القرآني المتنوع عن السنن الإلهية من الصياغات الدلالية العميقة في بناء المنظومة المعرفية لهذا العلم بخصوصية معرفية ومنهجية متميزة بما يعيد تشغيل العقل العلمي السنني، وينقله من الطبيعة الاختزالية إلى الرؤية الكونية الكلية، وهي طفرة علمية خارقة في زمن البداوة لدى العرب أثناء نزول الوحي، وقد ارتقى هذا العلم إلى استيعاب المضامين العقدية المركزة عندما نسبت هذه السنن إلى الله تعالى، وما تحمله من الدلالات العميقة على مصدريتها وحجيتها مثل قوله تعالى:[**سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا**] [(3)]، والحاجة اليوم ملحة إلى إحياء "فقه السنن الإلهية"، و"فلسفة الله في الوجود"، حتى نلحق بدائرة الفعل الإرادي والشهود الحضاري، والخروج من حالة الكمون إلى حالة فاعلية الشهود وتأثيرها.

وبالرغم من هذا الرصيد المعرفي الثري لعلم السنن في القرآن الكريم إلا أنه طغى ضعف في الحس السنني والوعي به، وهيمن تقصير بشري فيه، اكتشافا وفهما وتوظيفا؛ أدى إلى أزمة معرفية وخلل منهجي في الإصلاح والتغير، تصورا في الفهم وتسديدا في الممارسة، وهو ما يتطلب فقها استدراكيا واعيا يجمع بين العقل الفقهي المجرد والعقل المقاصدي المجرد والانتقال من العلم بالسنن إلى العمل بها.

وإذا كان المنهج القياسي قد طغى على الفكر والتراث الإسلامي في مجال التشريع واستنباط الأحكام الفقهية الجزئية من أدلتها التفصيلية بإعمال العقل في مساحة النص في الآيات المسطورة، فإن التحفيز القرآني للعقل يعلمه المنهج الاستقرائي في اكتشاف السنن الكونية، والتوصل إلى حقيقتها العلمية بالنظر والتفكر لقوله تعالى: [**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**] [(4)]، وذلك للوصول إلى فقه الحياة والحضارة الذي هو نوع من الإبداع العقلي والإنتاج الفكري الذي يعين على معرفة السنن الثابتة، وإدراك قوانين السقوط والنهوض

---

(1) _ سورة فاطر، الآية 43

(2) _ سورة يوسف، الآية 111

(3) _ سورة الأحزاب، الآية 38.

(4) _ سورة فصلت الآية 53

ومقاييس القوة والضعف، فهو ما يتطلب الارتقاء به من مجرد المعرفة بعلم السنن وفلسفته وتاريخه إلى نشر الثقافة السننية وبث وعيها، وكذا التخصص في علم السنن، وتحوله إلى مجرى ثقافي في مختلف المراحل المعرفية لأفراد الأمة ومؤسساتها وهيئاتها، حتى ننقل المسلم المعاصر من مجرد القياس على الماضي إلى استقراء الحاضر واستشراف المستقبل، وذلك لإعادة بناء وتشكيل الهندسة العقلية السننية من جديد، فلا مجال للصدفة في الحركة التي تحكم الحياة والأحياء، ولا في النواميس التي تضبط الكون المادي، ولا التي تؤطر الاجتماع البشري لقوله تعالى: [**اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ**] [(1)]، وهي التي تعبر عن ذلك التعاقد الخالد بين الخالق والمخلوق.

وكما أن السنن الكونية هي التي تضبط إيقاع هذا الكون، وتحافظ على نظامه المحكم وفق قوانين رياضية وهندسية، وكيميائية وفيزيائية وفلكية غاية في الإتقان، وتحافظ على مصالح وصلاح العمران في الأرض وفق نظام سنني بديع لقوله تعالى:[**صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ**] [(2)]، فإن هناك سننا نفسية واجتماعية وتاريخية تحكم الاجتماع البشري قد جاءت وفق سنن تشريعية وأوامر تكليفية تتجاوز الجانب التعبدي وتصل إلى ضبط السلوك الإنساني، وتتحكم في القوة والضعف وتتسبب في الهزيمة والنصر، وتلعب دورا في السقوط والنهوض وتسهم في عوامل النجاح والفشل في ربط بين الأسباب والمسببات كمقدمات نملكها إلى نتائج نملكنا وهي لا تتنافى مع عبادة التوكل، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "اعقلها وتوكل". وهذه السنن لا تجاهل المؤمن لإيمانه، ولا تعادي الكافر لكفره، كما قال ابن تيمية عن التمكين "إن الله ينصر الدولة العادلة ولو كنت كافرة ويخذل الدولة الظالمة ولو كانت مؤمنة"، مثل ذلك غزو أحد، إذ لم ينتفع الصحابة رضوان الله عليهم إيمانهم عندما فرطوا في أسباب النصر فانهزموا وعاتبهم القرآن الكريم بقوله تعالى: [**وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**] [(3)]، فقد وقعت هزة نفسية عنيفة صدمت ضمير الصحابة عند الهزيمة، ولامس الوحي خفاياه فقال عنهم: [**أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**] [(4)]، فردهم إلى أنفسهم ووضعهم أمام حتمية المعرفة بالسنن الثابتة التي تحكم الصراع وهي أسباب تنظم للنصر والهزيمة على المؤمن والكافر.

---

(1) _ سورة الرعد الآية 08

(2) _ سورة النمل الآية 88.

(3) _ سورة آل عمران، الآية 152

(4) _ سورة آل عمران الآية 165

الوعي بالسنن يحقق التوازن

إن الوعي بالسنن الكونية يزيدنا توازنا وتنمية حيث أن القاعدة التنموية تقول بحجم قدرتنا على استيعاب من حولنا وتوظيفهم فيما يناسب، يكون حجم قوتنا ووعينا لتحقيق وفاق جماعي، فلابد للبشرية أن تعيش لبعضها البعض؛ وإلا هلكت وأهلكت وخالفت السنن الكونية التي حملها الله في هذا الكون لتدبير أحوال البشرية منها قوله تعالى: **[يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا]** [1]، فقد قال الله: لتعارفوا وليس لتخاصموا أو تعاركوا، فالتعارف سنة البناء والعمران وأيضا قوله تعالى:**[وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ]** [2]، جاء في هذه الآية سنة المدافعة حيث هذه البشرية (تواطئت) بمختلف طبقاتها، واجتمعت على ما ألفته نفوسهم من قيم العدل والمساواة والتوسط والإنصاف والتعايش، ونحو ذلك، فجاء الإسلام مؤكد هذه المبادئ وموجها لها لتصب كلها فيما يخدم مصالح البشرية جميعا كأفراد وجماعات، وجعل من قاعدة الكون "لتعارفوا"، ونتيجة للتعايش والتواصل البشري القائم على غاية شريفة هي عمارة الأرض، كما أن التعايش لا يعني التنازل عن ثوابت الإسلام والقيم، بل خلق الله الأرض وجعلها منسقة للجميع حتى يعمروا فيها ويحقوا الاستخلاف لقوله تعالى: **[هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا]** [3].

وقد جعل الله مفاتيح التعايش السلمي بأمر الناس على التسامح والوئام حتى مع المخالف في الطباع والمفهوم والسلوك، ودعاهم إلى تجنب دواعي الخلاف والاختلاف قدر المستطاع، وحذرهم من الوقوع في المآثم والمغرم حين الاستسلام له، وتجذيره في نفوس المجتمعات بحجة قدر الله المحتوم، وقد تعامل الإسلام مع العناصر التي تعيش في دياره، وهي تدين بغيره، بعهد وميثاق، وذمة وأمان، فكيف بمن يدينون بالإسلام؟

خصائص السنن الكونية:

تعد السنن الكونية أثرا من آثار إظهار أفعال الله تعالى في خلقه وعلمه وحكمته ومن أبرز صفاتها:

1- **التوازن والنظام:** يمضي النظام والتوازن في كل مظاهر الكون وجوانبه، كما نلحظ هذا الانسجام الساري بين أجزاء الكون لما فيه روح العناية التي لا تغفل عن حفظ هذا الكون ورعايته، فالتوازن بين عناصر الكون وشرائحه هو سنة الله تعالى التي دبر بها الكون، وهو العدل الذي قامت به السماوات والأرض، ولقد جاء التعبير عن هذا الخلق المبدع بأجود أسلوب إعجازي قوله تعالى:

---

[1] _ سورة الحجرات، الآية 13.

[2] _ سورة البقرة، الآية 252.

[3] _ سورة هود، الآية 61.

[قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى] [1]، والتعبير "أعطى كل شيء خلقه" بيان لسنته في توازن عناصر كل مخلوق توازنا منسقا محكما، وقوله (ثم هدى) بيان لسنة الله تعالى في توازن التمكين الذي أوتيه كل مخلوق في طرائق عيشه وضوابط حياته[2].

وتقع بعض التوجيهات القرآنية مرتبطة بهذا التوازن موقع المعلل والتعليل فيترتب على إدراك هذا التوازن إدراك عظمة فاعل هذا التوازن ومبدعه.

ومن خصائصها أيضا:

أنها ثابتة لا تتحول فلا تحابي ولا تجادل أحد لقوله تعالى: [ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ][3]، هي سنن شاملة مطردة في كل مجالات الحياة، في علم النبات والحيوانات وعلم الإنسان.

لا يوجد تعارض بين إطراد السنن وإطلاقه المشيئة.

كما لا يوجد تعارضا بين إطراد السنن واختيار الإنسان.

فليس هناك فوضى من ناحية البناء العلمي، والانطلاق الحضاري بل هي سنن قائمة بيقين، انطبقت على الرسل كافة، وعلى محمد صلى الله عليه وسلم، نصرا أو هزيمة، فلا يحابي الله أو يستثني أمة في هذه القوانين، إذ طبقت هذه الأخيرة على الناس جميعا لقوله تعالى: [لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ] [4].

أما في السنن العلمية فكما قال الفيلسوف أنشتاين أن الله خلق الكون وفقا لقوانين لا تعترف بالمصادفة والعشوائية.

والإسلام هو الدين الوحيد من بين الشرائع السماوية الذي أقر شرعية التجديد وعدها سننا من سنن الله الدائمة الفعل على مر القرون، فكما يصدأ السيف ويحول بينه وبين الفعل الخلاق، كذلك تصاب المنظومات الفكرية ومنها الأديان بالبدع والخرافات والإضافات التي تحجب جوهر الدين، فتعطل فيه

---

[1] _ سورة طه، الآية، 50

[2] _ انظر محمد الصادق عرجون، سنن الله في المجتمع من خلال القرآن، الدار السعودية، ط3، 1404 هـ- 1994، ص 16-17.

[3] _ سورة الحج الآية 10

[4] _ سورة الرعد الآية 11

الطاقات والفعاليات، بسبب كون الإسلام هو خاتم الرسالات وحتى يكون صالحا لكل زمان ومكان كان التجديد فيه قانونا دائما[1].

سنة التداول والاستبدال:

وهي من السنن الاجتماعية والتاريخية وتعني التعاقب والتناوب الحضاري وهي السنة التي تكشف عن هزيمة مقولة "نهاية التاريخ" للمفكر الأمريكي "فوكوياما" والتي تؤكد على صعود الحضارات وسقوطها، وعلى ميلاد الأمم ووفاتها، وعلى نشأة الدول وزوالها، وعلى تناول القيادة وانتقالها.

قال الله تعالى: [**إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**][2]، ولا يزال التاريخ مشحون بهذه السنة واستحقاقات التداول وشروطه، في إطار نسق سنني رباني ثابت، يقتضيه العدل الإلهي في الخضوع لقانون السببية وفي سياق الحديث عن معركة "أحد" قال الله (إن يمسسكم فرح" يعني هزيمة أحد فقد مس القوم قرح مثله أي هزيمة المشركين في بدر، (وتلك الأيام نداولها بين الناس"، ذلك أن الوسيلة الحقة في الباطل قد تنصره، وأن الوسيلة الباطلة في الحق قد تهزمه، ولا تكون الهزيمة بالضرورة لذات الحق، ولا يكون النصر بالضرورة لذات الباطل، إذ أن العبرة من الحديث عن "أحد" فهي تتحدث عن الأيام بإطلاقها، ونتحدث عن الناس بعمومهم وهو ما يؤكد المنهج القرآني في تقرير القوانين والسنن الثابتة بناء على السلوك التاريخي للإنسان، بعد تجريدها من أبعادها الزمانية والمكانية، لتبقى قاعدة عامة ومطردة، وكما يكون التداول بين الدولة والأمم أو الحضارات، كما قال تعالى: [**كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا**][3]، يكون التداول داخل الأمة لواحدة وداخل الدولة الواحدة، وحتى داخل الجماعة الواحدة، كما قال تعالى: [**هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ**][4]، ومن الثمرات اليقينية لهذا الفقه بسنة التداول والاستبدال – كسنة من السنن الجارية، أنها ترسخ استثمار استيعاب اللحظة التاريخية والإنصاف إلى منطق الحتمية في العلاقة بين المقدمات والنتائج وبين الأسباب والمسببات، وأن الاعتقاد فيها وحسن وعيها يزرع الأمل القوي بأن التخلف ليس قدرا لازما ولا

---

(1) _ محمد عمارة، في فقه الحضارة الإسلامية، مكتبة الشروق الدولية، ص35.

(2) _ سورة آل عمران، الآية 140

(3) _ الإسراء، الآية 20

(4) _ سورة محمد، الآية 38

أمرا دائما، فهناك الأمل في اقتناص فرص التغيير والتداول وفق سننه وشروطه، وهو ما نلمسه من التحذير القرآني القوي، بعد هزيمة "أحد" أن تقع الهزيمة النفسية والاستسلام للأمر الواقع، والتسليم باللحظة الراهنة وكأنها لحظة جامدة ودائمة لا تتغير بل لابد من مقاومتها حتى لا يتسرب اليأس إليها لقوله تعالى:[**وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**] [1]، وهو درس في عدم الاستسلام للحظة الهزيمة الخادعة، فما هي إلا تجربة يبنى عليها مراعاة السنن للاستمرار في العمل والتضحية والعطاء والإنجاز، لأن الانتصارات أو الانكسارات لا تأتي صدفة، بل تخضع لفعل تراكمي، وتحتكم إلى فقه سنني ثابت وهي —في أصلها– عمل جماعي تشاركي، وأن كانت في صورتها النهائية إنجاز يكتبه التاريخ لقائد ملهم أو موهوب، ويغفل الناس عن مسيرة السنن الاجتماعية والتاريخية في شكلها الممتد والمتدرج ولا يرون إلا تلك الحلقة الأخيرة من ذلك المسلسل الطويل من الانتصار والانكسار.

ولقد من الله على هذه الأمة ألا تتعرض للاستئصال الحضاري والإفتاء التاريخي، وبالتالي فهي قادرة على التداول، وأن ما يقع لها هو مجرد الوهن الحضاري، كنوع من أنواع العلل بسبب المعاصي السياسية والفكرية والاجتماعية والحضارية، وفق الحقيقة التي جاءت في الحديث الشريف: "يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها)، وعندما سئل عن سبب ذلك، قيل، فما الوهن يا رسول الله، قال: حب الدنيا وكراهية الموت أي ظهور الإنسان الاستهلاكي الغرائزي الذي لا يرعى إلا حقوقه وغياب الإنسان المضحي الذي لا يرى إلا واجباته.

فالعقوبات الدينية والابتلاءات الدنيوية بسبب الوهن ما هي إلا منبهات حضارية وتحديات مستمرة ومحفزات باعثة للتجاوب بفاعلية مع سنن التدافع والتداخل والتغيير والتسخير.

وهذا اليقين في تحقق سنة التداول والاستبدال" مبني على الإدراك بأن للدول والحضارات أعمار مثل أعمار الأفراد التي قال عنها ابن خلدون في المقدمة، وأن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص[2]. وأن الظلم والفساد عن أي دولة أو حضارة هو السبب المباشر في سقوطها، وهو الناموس الحاكم في التداول عليها والاستبدال لها.

سنة التدافع:

(الدفع: هو الإزالة بقوة... وتدافع القوم أي: دفع بعضهم بعضا) [3]. والتدافع (سنة اجتماعية من

---

[1] _ سورة آل عمران، الآية 139

[2]–ابن خلدون، المقدمة، الفصل 14.

[3]–ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، مادة الدفع.

سنن الله تعالى وقوانينه، التي لا تتخلف ولا تتبدل، كما أنها سنة فردية أيضا)[1]. [فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ] [2].

فالتدافع والصراع هو سبيل الحيوية والنمو وعلامة الحياة والاستمرار، وهو أحد محركات الحياة[3]، لأنه حراك اجتماعي وثقافي وحضاري، أي: تنافس وتسابق بين الحضارات يعدل المواقف الظالمة والممارسات الجائرة، والعلاقات المنحرفة دون صراع يصرع الأطراف الأخرى- فيلغي التعددية- وإنما بالحراك والتسابق الذي يعيد العلاقات المختلة إلى درجة التوازن والعدل في العلاقات بين مختلف الفرقاء.

فالتعددية سنة إلهية وقانون كوني لا تبديل له ولا تحويل، والعالم يجب أن يكون منتدى حضارات لا حضارة واحدة[4].

ولقد كانت الحياة كلها تأسن وتتعفن لو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض، ولو لا أن في طبيعة الناس التي فطرهم الله عليها أن تتعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرية القريبة، لتنطلق الطاقات كلها تتزاحم وتتغالب وتتدافع، فتنفض عنها الكس والخمول، وتستجيش ما فيها من مكنونات، وتظل أبدا يقظة عاملة، مستنبطة لذخائر الأرض مستخدمة قواها وأسرارها الدفينة، وفي النهاية يكون الطلاح والخير والنماء، يكون بقيام الجماعة الخيرة المهتدية المتجردة، تعرف الحق الذي بينه الله لها، وتعرف طريقها إليه واضحا، وتعرف أنها مكلفة بدفع الباطل وإقرار الحق في الأرض، وتعرف أن لا نجاة لها من عذاب الله إلا أن تنهض بهذا الدور النبيل وإلا أن تحتمل في سبيله ما تحتمل في الأرض طاعة لله وابتغاء لرضاه[5].

وهذا التدافع بين الحق والباطل أمر حتمي، لأنهما ضدان، والأضداد لا تجتمع، ووجود أحدهما يعني إزاحة الآخر، أو على الأقل إضعافه، ولابد للحق من قوة تحميه، كما أن للباطل قوة تطغيه[6]، قال الله تعالى آمرا أهل الحق: : [وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ

---

[1]-فتحي شهاب الدين، السنن الإلهية في قيام الأمم وسقوطها، مرجع سابق، ص 59.

[2] _ سورة البقرة، الآية 251.

[3]-المرجع نفسه، ص 59.

[4]-محمد عمارة، في فقه المواجهة بين الغرب والإسلام، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1، 1423هـ، 2003، ص 72-73، والحضارات العالمية تدافع أم صراع، محمد عمارة، ص 17-18.

[5]-سيد قطب، في ظلال القرآن، مصدر سابق، ص/270-271.

[6]-عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية، مرجع سابق، ص 45-47.

وَعَدُوَّكُمْ [1].

وما نراه اليوم ليس إلا تطبيقا لسنن الله في خلقه، فالسنن الربانية هي التي تحكم أوضاع الجاهلية المعاصرة، سيادة العالم الأوروبي المادي، الذي رفض الأديان إن قولا وفعلا وإن فعلا دون القول، وقد استشعر في كبرياء مستنكر أنه قد نجح في تحديه مع الله، ومن وجهة أخرى يتساءل الكثير من الناس، بل من المسلمين: كيف تمكنت أوروبا كل هذا التمكين وهي كافرة، وأين –إذن– سنن الله التي توعد سبحانه بها الكفار بالمحق[2]. ووعد المؤمنين بالنصر والتمكين؟.

الحق الذي يجب الإيمان به أنه –تبعا لسنن الله في الكون– أن الحق إذا تخلى عن جوهره، وتمسك الباطل بحقيقته، فإن الباطل ينتصر على الحق، لأن حقيقة أي شيء تتغلب على مظهر أي شيء، ولو كان هذا المظهر هو مظهر الإسلام، تلك الحقيقة هي حقيقة الباطل، كما قال الشهيد سيد قطب[3].

لذلك ذكر لنا ربنا في كتابه العزيز آيات كثيرة تحمل لنا حقيقة هذه السنن، وهي تحمل في طياتها أحوال الجاهلية المعاصرة، فأوضاعها كلها مذكورة في السنن الربانية الواردة في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل يعجب الإنسان حين يتلو الآيات كيف انطبقت بحذافيرها على أوضاع الجاهلية المعاصرة، كأنما أنزلت بشأنها، مع أنها أنزلت قبل أربعة عشر قرنا، ذلك أن الجاهليات كلها متشابهة في جوهرها، وإن اختلفت في تفاصيلها، وكان لكل منها خصائصها التي تشكلها ظروف الزمان والمكان والسنن الربانية متعلقة بالجوهر وليست المتعلقة بالأشكال[4].

السنن الكونية من الإدراك إلى التسخير:

هو الانتقال بالسنن من الإيمان إلى التفعيل، أي تفعيل هذا التسخير الإلهي في كونه لعباده للاستفادة منه، إذ أن القناعة بها والإيمان بهذه السنن لم تجد طريقها إلى الممارسة، وهذا واقع الأمة، ولم تنتقل بمواقعنا إلى مراحل تغييرية، فما يزال هناك قيود التقليد الاجتهادي من ترسبات الماضي، وإذا كان القرآن قد عرض عوامل وسنن لنهوض الأمم وشهودها، فإن المشكلة هي كيف يمكن لهذه الأمة الانتقال بواقعنا الحالي من موقع المعرفة والفكر إلى موقع الفعل والحركة والممارسة وإن كان أن مناهج الفكر والمعرفة، لم تأخذ منا الأبعاد الحقيقية، وإعمال هذه السنن هو المختبر الحقيقي لإدراكها والعمل بها، ذلك أن هذه

---

[1] _ سورة الأنفال الآية 60

[2]–محمد قطب، رؤية إسلامية لأحوال العالم الإسلامي، مكتبة السنة، القاهرة، ط1، 1411هـ، 1991م، ص 35.

[3]–سيد قطب، في ظلال القرآن، مصدر سابق، 2/ 783.

[4]–محمد قطب، رؤية إسلامية لأحوال العالم الإسلامي، مصدر سابق، ص 35.

القضية (السنن الإلهية) لم تشكل بعد مناخا عاما يعيشه المجتمع[1].

فمثلا جهود محمد عبده دعوته في السنن الإلهية لم تلق استجابة لأهميتها، ولا تزال هناك بحر من مفردات هذا العلم تنتظر الكشف عنها وتفعيلها للنشء، ولا يقوم بهذا الأمر إلا فقهاء النهوض وفقهاء الشهود الحضاري.

وبالتالي فإنّ وعي الإنسان بقوانين هذه السنن وإيمانه بها وبقواعد حركتها هو الذي يجعل الإنسان قادرا على تسخيرها في الاتجاه الذي يريده وفق ما شرعه الله لأداء أمانة الاستخلاف.

ميادين السنن الإلهية:

ما من جانب في عالمنا الذي نعيش فيه المادي والمعنوي إلا ولله فيه سنن لقوله تعالى :[**وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا**][2]، أي سننا ونظما حاكمة، تحكم هذا الشيء، وعبارة شيء لا يخرج عن عمومها شيء، وحكمة الله يتجلى واضحة في بناء الكون، والحياة على أساس من السنن المطردة المنضبطة عامة الوقوع، ذلك أن صياغة ضمن روابط مطردة وعلاقات ثابتة هو الذي يجعل الإنسان يتعرف على موضع قديم وكل الوسائل والطرق التي يجب أن يسلكها في سبيل تكييف بيئته وحياته، وتحقيق هدف من أهدافه وحاجاته.

فمثلا خضوع الماء لقوانين ثابتة في الغليان أو التجمد أو الانصهار هو الذي يجعل الإنسان قادرا على الاستفادة بالماء في جميع أحواله، إذ يستطيع أن يصل إلى حد الغليان إذا أراد ذلك إلى الجمود أيضا.

وبناء الحياة على السنن الثابتة المطردة عامة، يلقي بالمسؤولية على الإنسان في بناء الحياة إذ لا يستعصي على أحد إنما تستجيب لمن يخدمها ويفعلها ويستغلها: [**مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ**][3]، هذا هو مضمون تسخير الله ما في السماوات والأرض لإنسان، جعل السنن لاستكشافها والعمل بها والاستفادة منها:[**وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا**][4].

والحقيقة أن آية السيدة مريم تستثيرني عندما قال تعالى: [**وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ**

---

[1]-محمد الغزالي، كيف تتعامل مع القرآن، دار الهناء، ص35.

[2] _ سورة الطلاق الآية 3

[3] _ سورة هود الآية 15

[4] _ سورة الجاثية، الآية 13

رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ [1] وهي قمة حالة العياء والتعب والضعف بعد الولادة، وأيضا قصة ذو القرنين. يعني أنه لا سبب للقوة والبناء وللحضارات وللشهود له إلا بالعمل، وتفعيل ما سخر لنا. :﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾ [2]، لكن من صنع السفن؟

إن انقياد السنن لمن يفعلها ويستخدمنا هو في حد ذاته سنة إلهية، تظهر من خلال دور إرادة الإنسان وحرية الاختيار التي منحت له، ومن ثم فإن النتائج التي ترى على الساحة الاجتماعية ستكون نتيجة طبيعية لعمل الإنسان. [وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ][3].

إلا أنه لا تثبت صفة السنة الإلهية لكل قانون تصل إليه (مبدأ السببية)، لأن القانون قد ينقض ليحل محله قانونا آخر، وقد يكون الخلاف بين السنة الإلهية والقانون البشري في الدرجة، كما قد تكون سنة إلهية وصل إلى حقيقتها الإنسان.

والإنسان كما ذكر محمد الغزالي مسيّر فيما لا يعلم ومخير فيما يعلم إذ يغيب عن أذهان الناس أن هذا الكون لم يُخلق عبثا أو بالصدفة، وأن كل حركة وسكون يكون لغاية، فكلما زادت حرية الإنسان كلما زاد علما، وأن الحياة لا تخطئ في صياغة المشاكل أنها تأتي بالنتائج طبقا للمسببات[4]: [وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ] [5].

فالسنة الإلهية في الاقتصاد: [فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ] [6]، والابتغاء هو الطلب، والطلب بممارسة العمل والسعي لها: "اعقلها وتوكل".

ولمحمد الغزالي رؤية متميّزة في الاقتصاد فقد ربط الإيمان بالله بضرورة اتخاذ سنن الله في الرزق، لتوفير جو الاعتقاد فيقول: "إنه من العسير جدا أن تملأ قلب إنسان بالهدى، إذا كانت معدته خالية، أو تكسوه بلباس التقوى، إذا كان جسده عاريا، إنه لابد أن تؤمن على ضروراته التي تجعله وتحافظ عليه كإنسان ثم ننتظر بعد ذلك أن يستمسك في نفسه بمبادئ الإيمان، لابد من التمهيد الاقتصادي والإصلاح العمراني، حتى يتحققوا شرط الإيمان، وأن أعدادا كبيرة من المسلمين زعموا أن صاحب الرسالة أثر الفقر على الغنى،

---

[1] _ سورة مريم 75

[2] _ سورة ابراهيم 32

[3] _ سورة الشورى 30

[4] -محمد الغزالي، عقيدة المسلم، دار الهناء، ص45.

[5] _ سورة آل عمران 182.

[6] _ سورة العنكبوت، 17

ودعا إلى قلة ذات اليد، وبهذه الفلسفة الجبانة نشروا الفقر في الأمة الإسلامية منذ قرون، وجعلوها لا تحسن إدارة مفتاح خزائن الأرض مع أنه من سنن الله الكونية، أنك تسير وفق الفطرة الإنسانية[1].

ويرى عزت ميجوفيتس أنه حتى في ميدان الصلاة والعبادة لا يمكن أداءها إلا بضبط الوقت، فاحتاج المسلمون إلى علم الفلك والزكاة إلى علم الإحصاء والحساب، وبممارسة المسلم لهذه الفرائض فقط يبلغ حدا أدنى من الحضارة، معنى هذا أن الإنسان لا يستطيع أن يكون مسلما ومتخلفا معا هذه معادلة ليس لها حل إلا العجز.

فالمسلم مكلف باتخاذ الأسباب المؤدية للرزق، وكفر النعم وعدم استغلالها واستخدامها يؤدي للتخلف.

مساهمة الفكر الإسلامي في تفعيل السنن الكونية:

ذكر مالك بن نبي أنه في سنة[2]،1948 سأله الفيلسوف الفرنسي رجاء غرارودي: لماذا الحضارات الغربية، استمرت والحضارات الإسلامية لم تستمر، فرد عليه مالك بن نبي هذه فجوة وثقبة في ثقافتهم، وثقافة الغرب اتجاه العرب والمسلمين وللحضارات كلها حظها وعمرها ما يكفي من القرون لأداء وظيفتها ورسالتها في العالم (تلك الأيام نداولها بين الناس).

فالعصور الوسطى كانت مظلمة على الغرب وعصور مشرقة على المشرق وعلى العالم بفضل علم الكندي والفارابي، حتى أن أحد المؤرخين الأتراك، يقول مياه النهر لو انحصرت على الواد فإنها تترك آثار الزمن طويلا، وكذلك الدول والحضارات إذا انسحبت من ساحة التاريخ نترك آثار ودلالات روحانيات... وأبحاث بحيث تستفيد منها للأجيال القادمة وهذا هو التاريخ وهو مصدر لعلمائنا وأديانا، كما أن مالك بن نبي اقترح منهجا يقوم على استلهام الوقائع الاجتماعية والتاريخية وتوظيفها في فهم نصوص القرآن وتنزيلها مع واقع المسلمين من أجل الإعجاز وإحداث التغير.

لقد أشبع النص القرآني بحثا وشرحا وتناولا في شتى المجالات اللسانية/ اللغوية/ الشريعة... الدراسات القرآنية حتى شكلت هذه الدراسات مكتبة، إلا أن جزءا منها وهو متابعة سنن الفقه الحضاري، أي قوانين الحركة التاريخية، إلى أن جاء ابن خلدون فيلسوف التاريخ إلا أنه لم يشر مطلقا أنه سبق لهذا الأمر في كتاب الله، يعني التأسيس الأول للتاريخ وأنه لا يتحرك بفوضى بل بسنن وقوانين حتى أن بعض

---

[1]-محمد الغزالي، عقيدة المسلم، دار الهناء، ص25.

[2]-سليمان الخطيب، فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1413هـ-1993م ص 134.

المستشرقين حاولوا نسبته إلى العلمانية.

رغم أن أكثر من نصف مساحة القرآن للتاريخ وفق مستويين هما:

1- مستوى السرد (شخص/ زمن/ مكان أحيانا لا نذكر حتى نصل إلى المستوى 2).

2- مستوى البحث عن السنن والقوانين وما وراء الوقائع.

ورغم أن القرآن يقر لنا الانتماء إلى التاريخ إلا أنه يحررنا منه بقوله" ذلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يفعلون...".

وهنا ينتقد مالك بن نبي تمجيد العرب تفاخرهم بتاريخهم بقوله: "مثقفوا المجتمع المسلم لم ينشؤوا في ثقافتهم جهازا للتحليل والنقد إلا ما كان اتجاه تمجيدي يهدف إلى إعلاء كلمة الإسلام.

والقرآن يعطينا إشارات لقيادة الأمم إلى الجادة والشهود، ويربط الأسباب بالمسببات والمقدمات بالنتائج والعلم بالعمل كأن يقول للإنسان: عليك أن تعمل وتتواصل.

ونشر هنا إلى أن العقل الغربي بلغ أقصى حدود الأفعال ولعل هذا ما يقصده محمد إقبال بالتحقق الذاتي. كما ذكر محمد أن الغرب يعملون بسنن الله وهم أقرب إلى الله من باب السنن.

فمثلا العالم أنشطاين بنظريته النسبية لامس تفسير قوله تعالى : [**إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (6) وَنَرَاهُ قَرِيبًا**]

إلا أن العقل الغربي معجب بذاته وإنجازاته حتى وقع في جملة من الأخطاء: مثلا النظرية التفكيكية عند الحداثيين تفكك كل النصوص، أما فرويد فيفسر كل الظواهر حسب نظريته.

إلا أنّ المسلمين في تاريخهم جعلوا خندقا بينهم وبين الخطاب القرآني، ولعل الأمر بالتسخير ما في الأرض يحملنا المسؤولية المزدوجة: التبصر بأحوال الأمم للعبرة والدرس، والتعرف على أحوالهم ليكون الخطاب الإسلامي مطابقا لواقع الناس لأن الإسلام عالمي الخطاب يعني وجوب التعرف على الأفاق الثقافية والحضارية الأخرى ولابد أن تتلاقى تيارات الفكر العالمي عندنا، وفي نظر مالك بن نبي أن أسباب التقهقر الحضاري للعالم الإسلامي هو ضعف الدفعة القرآنية الحية يكون نهاية دورة الأمة الحضارية، وتُنقل تلك الحضارة إلى بقعة أخرى أو أمة أخرى، فتبدأ فيها دورة جديدة وفقا لسنن الإلهية[1]. ويقصد مالك بن نبي (الدفعة القرآنية الحية) تلك المبادئ القرآنية التي أقام الله عليها نظام الكون، لاسيما السنن الإلهية أو

[1]-فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي، سليمان الخطيب، ص108

المبادئ الحضارية منها، فالطريق للشهود الحضاري مفتوح لمن أراد الدخول، ولن يكون الدخول إلا لمن يطرق باب السنن الإلهية في الكون.

والشهود الحضاري هو الاستخلاص المؤهل لتجسيد حقائق الوسط كمشروع بناء حضاري متوازنا يكون بمقدوره استيعاب وتجاوز ونقل الوضع الإنساني القائم على الفوضى والشتاتة والاختلال والتخلف إلى مساحة التوازن والنظام والتوحيد والتناسق والقوة والترقي إلى المستويات المختلفة (العمرانية/ البشرية/ الحضارية).

وفي نظر الغزالي فإن الشهود التاريخي الذي عرض في القرآن الكريم من خلال القصص القرآني هو رصيدا مهما للأمة الوارثة التي انتهت إليها القيادة الدينية لتُغير منه، وتبني عليه شهودها الحضاري، حيث – يقول الغزالي– أنه على المسلم أن أن يقرأ تاريخه وحاضره ليتمكن من أداء دوره في الشهود الحضاري الذي يمكن أن نسميه بالشهادة على الناس وقيادتهم[1].

كما طلب القرآن الكريم من المسلم إلى جانب الرحلة في التاريخ الإنساني، والتبصر بسنن الصعود والسقوط للمجتمع البشري أن يكون له رحلة أخرى، وهي رؤية سنن الله في الأنفس وفي المجتمعات والآفاق، لأن العدول عن هذه النظرة لا تؤهله إلى النهوض الحضاري الذي يطمح فيه[2].

فالقرآن قد بسط نماذج من حضارات الأمم السابقة بعقائدها وتجاربها ومسالكها الأخلاقية، وأنظمتها السياسية بمساحات كبيرة لتكوين الحكمة عند المسلم التي تجعله ينتفع لتجارب أخرى، وهذا يؤثر على ضرورة التبادل الحضاري من تجارب بشرية بلغت أوج رقيها في النظم، كما أنها دعوة للانفتاح على الثقافات والحضارات العالمية معتبرا القصص القرآني ماضي الإنسانية ورحلة البشرية، والإسلام يعتبر التاريخ عقل الإنسانية[3].

وهنا ينبه الغزالي إلى أن سنن الله في الحضارات البشرية وانهيار الأمم هي صورة مكملة وامتداد طبيعي لسنن الله في ميادين العلوم التطبيقية[4].

أدوات الإنتاج الحضاري

---

[1]– أنظر محمد الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن الكريم مصدر سابق، ص 60، سر تأخر العرب والمسلمين، مصدر سابق، ص 30.

[2]–محمد الغزالي، سر تأخر العرب والمسلمين، مصدر سابق، ص 30.

[3]–محمد الغزالي: كيف نتعامل مع القرآن، ص 216-217.

[4]–محمد الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن، سر تأخر العرب، ص 30.

يتطلب الإعمار في الأرض أدوات للإنتاج، فالأعمار هو الإنتاج الحضاري الروحي والمادي لأمة ما، بمعنى إنتاج في كل الصنائع تجارة، صناعة، فلاحة، وخدمات، أو الإنتاج لامادي أي إنتاج فكري وقيمي وأخلاقي ذلك هو الإعمار، في حين يتطلب هذا الإعمار في حد ذاته إلى أدوت الإنتاج الحضاري التي هي الدولة– الوطن– الأمة– اللسان والرسالة.

وبالتالي فأي نهوض تاريخي لأية أمة يستوجب توفير خمس أداوت للإنتاج الحضاري هي الوطن/ والأمن واللسان والرسالة (المشروع الثقافي للنهضة)، وغيابها يعني تفكك الحضارة وسقوط الأمة. ولعل تاريخ مصر وبلاد الرافدين والهند والصين وفي العصرين المقدوني والروماني وفي عصر الخلافة الإسلامية الزاهر، يؤكد تلازما في ميلاد الحضارة وميلاد أدوات الإنتاج الحضاري، وذلك ما حصل في العصر الوسيط المسيحي لتدهور الحضارة وانحطاطها، ويقابل ذلك تطور الحضارة وارتقائها في العصر الوسيط الإسلامي.

كان الإسلام في الشرق يبني تجربة تاريخية تسير في الاتجاه المعاكس لتجربة المسيحية في الغرب، قبل ظهور الإسلام، عكس أوروبا، كانت الجزيرة العربية باستثناء نواة اللسان العربي بلا وطن موحد، بل أقاليم مشتتة ولا أمة، بل قبائل مشتتة ولا دوة وحكومة ولا دولة أو حكومة، بل كانت احتلالا فارسيا ورومانيا وحشيا ولا رسالة لنهضة الجزيرة، وفي أقل من ربع قرن من زمان النبوة تشكلت النواة الصلبة لأدوات الإنتاج الحضاري الإسلامية، إذ ولدت أداتان للإنتاج في العصر المكي هما اللسان العربي لسان العبادة والحضارة والإسلام باعتباره رسالة النهضة، أما في العصر المدني ظهرت باقي أدوات الإنتاج وهي الوطن والأمة والدولة (السلطة)، وهذه النواة ستتعمق وتتوسع في عصر ما بعد النبوة، فأصبح الوطن هو دار الإسلام العابر للأقاليم من حدود الصين إلى حدود الأندلس، وأصبحت الأمة عابرة للأقوام والشعوب تنتقل فيه رؤوس الأموال والرجال والأفكار بلا تأشيرة مرور أحسن يتحمل بنيان الدولة الإسلامية ذات الوحدة السياسية، فرغم تعدد الكيانات لأكثر من خلافة واحدة، ومن مملكة إلى امبراطورية وإمارة وسلطنة في العالم الإسلامي، فكل الحكام كانوا ملتزمين بالشريعة في إدارة شؤون الناس باستثناء بعض الكيانات المخرقة، وأصبح بذلك اللسان العربي لسان الإنتاج الحضاري بلا منازع إضافة إلى كونه لسان عبادة فكانت بذلك القيادة الحضارية للمسلمين مدة 8 قرون من الزمان ولكن مع الأسف أعدنا اليوم كأمة إنتاج العصر الوسيط المسيحي، عصر التكور والانحطاط الحضاري، يسبب تفكك أدوات إنتاجا الحضاري.

إلا أن نهضتنا اليوم تفرض بالضرورة إعادة بناء هذه الأدوات من جديد استجابة لعصر ما بعد الحداثة وفق السنن الكونية التي تحكمها.

منهج استعادة الريادة الحضارية: وله شقان

أولهما: يتمثل في معرفة ذاتنا والعمل على تفعيل خصائصنا الحضارية.

ثانيهما: يتمثل في معرفتنا بالآخر وبإنجازه الحضاري وإشكالاته كشريك حضري يمتلك أدوات السبق والحضور في كل المواقع.

أما الخصائص الحضارية للأمة الإسلامية التي تؤهلها للريادة الحضارية تظل أطروحات نظرية لا نصيب لها في أرض الواقع إن لم تفعل، فمشكلة الحضارة الإسلامية اليوم ليست في غياب النصوص المادية بقدر ما هي في تجسيد هذه النصوص وعيا وتنزيلا، ولعل أهم ما يجب التركيز عليه في تفعيل هذه الخصائص:

- إحياء منهج الوسطية، الذي يتجسد في معالجة اختلال سوء الفهم للإسلام بعيدا عن طرفي الغلو والتقصير وتنقيته من الشوائب ليجمع بين محكمات الشرع ويرعى متغيرات العصر، وإطلاق طاقة التعمير المادي في الفكر الإسلامي، إذ لا يتحقق الإيمان الحق إلا بالنهوض بواجب تعمير الأرض.
- ثم تأتي تجليات الأنفس والآفاق، وذلك بالتدّبر والتفكر في آيات الله والسعي لاكتشاف قوانين المادة وتركيبها.
- والعلم بالقوانين الكونية المادية فضلا على أنه يوصل إلى الله فهو وسيلة للاستنفاع والإفادة من الكون واستثمار ذلك في تنمية الحياة وترقيتها مأكلا ومشربا وملبسا وسكنا وزينة بما يعود على الإنسان بالسعادة الدنيوية والروحية.

وبناء الحضارات تقتضي أن يعرف المجتمع دوره ويتمعن به على أكمل وجه عبر مؤسسات فاعلة في تخصصاتها وتتقاطع في مجالاتها، لكنها تتخذ في أهدافها الكلية وغاياتها النهائية تماما كاللوحة الجميلة تختلف ألوانها وتتقاطع خطوطها لكنها تتكامل فيما بينها لتعطي الشكل النهائي المرجو.

إن تحمل المسؤولية هو الذي يردم الهوة بين الواقع الموجود والمثال المنشود، فالمثال المنشود يظل نظرية في أذهان الناس حتى تجد النظرية بالمجتمع الذي يتحمل مسؤولية تطبيقها في أرض الواقع، وقد بين القرآن الكريم زوال كثير من الأمم تجمع الفساد في سنن مناحي حياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية مثل اقتراف الفواحش واتباع الشهوات والجهر بالمنكر وعدم التناهي عنه كما فعل بنو اسرائيل. **[كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ]** [1]، وكذلك الكفر بنعم الله وعدم شكرها لقوله

---

[1] _ سورة المائدة، 97.

تعالى: [فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ] [1]، والترف والبطر في قوله تعالى: : [وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا] .

خاتمة

وبناء على ذلك من الشروط الواجب توافرها لتحقيق الريادة الحضارية إطلاق النظر للاجتهادي من قيود الجمود والتقليد وتوسيع دائرة الحَراك الفكري على أوسع مدى واحترام التخصص والخبرة وتقديم أهل الخبرة والرسوخ، ذلك أن الاجتهاد وتحريك العقول، وتوسيع دائرة الرأي والتشاور والتفاكر والتحاور مع الذات، والحوار مع الآخر هو الذي يحرك رواكد الأمة، ويطلق طاقاتها المعضلة، ويثير فاعليتها ويشحذ همتها ويذهب بغثائها ويثبت صوابها وينقلها من موقع التلقي والأخذ إلى موقع المساهمة والعطاء الحضاري والعالمي، ذلك أن الحضارات تبنى بالاستغلال الأمثل للوقت وحسن إدارته، ولا يكون ذلك إلا بالتخطيط والتنظيم والتوجيه، الرقابة، واتخاذ القرارات وعدل الله اقتضى أنه من عمل بسنن نهوض الأمم يوفق ويسدد.

[1] _ سورة النحل 112.